قراءة في مفهوم الثقافتين عند سي. بي. سنو

د. ناصر محمد الشعلالي
قسم الفلسفة – كلية الآداب
جامعة الزاوية

مقدمة:

ثمة أمر لا خلاف عليه، هو أن الثقافات بألوانها المتعددة، وأنواعها المختلفة هـــي نتـــاج معاناة معرفية بشرية، وحصاد رحلة من البحث المعرفي والتقصي والتنوع في استيعاب القضايا والإشكالات التي تشكل في صميمها روح المعرفة، لذا فإن النظر في موضوع الثقافتين (العلميـــة منها والأدبية) بات أمراً ملحاً بعد أن لحق بالثقافة ما لحق من انشطار وانفصال بين موضوعاتها وتخصصاتها وقضاياها، خاصة بعد التمايز الواضح بينهما، وانشغال كل فريق بمجالاته المعرفية والتخصصية والانحياز التام له دون استيعاب للنموذج الآخر المتعلق بالتخصصات الأخرى ولـــو على سبيل الاطلاع لا التعمق.

إن تنصل الحكومات ومراكز الأبحاث من التزاماتها، وانحيازها لعلم ما من العلوم وتشجيعه والإنفاق عليه والترويج له على حساب علم آخر (وأقصد هنا الانحياز للعلوم الطبيعية والتطبيقية) إنما يُحدث شرخاً عميقاً في بنية المعرفة الفردية والمجتمعية على السواء، ويؤدي في النهاية إلى خلق إنسان تقني آلي تعوزه القدرة على التفكير الواسع، وتنقصه الجرأة على اقتحام ميادين العلوم الإنسانية الأخرى،

تأتي أهمية هذا الموضوع كونه يشير بوضوح إلى قضية مهمة وإشكال عام يمس مسألة الثقافة عند واحد من أهم المفكرين الانجليز (تشارلز بيرسي سنو) الذي جمع بين العلم والأدب، فكان عالماً وروائياً في آن واحد، وهو الذي أحس مبكراً بخطورة انقسام الثقافة إلى ثقافتين في المجتمع الغربي المتقدم، وأدرك النتائج المؤثرة التي سوف تنجم عن هكذا انقسام على الصعيدين الفردي والمجتمعي،

أما عن أهدافه فهي محاولة مهمة لنقل رؤية (سنو) وتحليله حول تفادي هذا الانفصال والانقسام، فإذا كان ما نشره (سنو) عن المجتمع الغربي وهو يمضي في تطوره المذهل يشد انتباهنا ويثير دهشتنا، فكيف يكون حال انتباهنا ودهشتنا في مجتمعاتنا العربية التي لم تلتحق بركب التقدم المعرفي بعد؟

إننا نلحظ بكثير من الوضوح غياب التوازن في استيعاب التخصصات المعرفية بشقيها العلمي والأدبي في مدارسنا وجامعاتنا ومراكز الأبحاث والمعاهد، إذ نرى ميل الإدارات إلى تخصيص جل الاهتمام للأقسام العلمية التطبيقية مما خلق فجوة بين المتخصصين على نوعيهما، ومن أهداف هذا البحث أيضاً إظهار النتائج التي انتهت إليها دراسة سنو بغية التقريب في وجهات النظر بين العلماء والأدباء والتي من شأنها كذلك أن ترشد مؤسسات التعليم والإعلام إلى

ضرورة تبني موقف موحد لتوحيد الثقافة، وتوعية المثقفين في كلا المعسكرين بتبني الاتجاهات المتبادلة بين الثقافات وتوسيع دائرة الإلمام بها،

هذا وقد اتبعنا في تشريح هذا البحث المنهج التاريخي والتحليلي والنقدي ما أمكن لنا ذلك، وقد قُسم البحث منهجياً إلى محاور ثلاثة، يتعلق الأول بمفهوم الثقافة ودلالاتها اللُّغوية والاصطلاحية، بينما يقف الثاني عند حدود المفهوم وأصله وما طرأ عليه من تغيرات، أما الثالث ففيه عرض لفكرة (سنو) حول موضوع الثقافتين مشفوعاً ببعض النقد الذي تغلغل في كثير من مفاصل الأفكار، مع مقدمة وخاتمة،

أولاً- مفهوم الثقافة:

يشير مفهوم الثقافة في عمومه إلى حصيلة المعارف المتنوعة التي يحصلها الإنسان عبر مراحل تعليمه وتعلمه المختلفة، ومسيرة خبرته الحياتية التي جرى فيها التفاعل بينه وبين بيئته، بمعنى أنها ذلك النسيج الكلي الشائك المعقد الذي تتداخل فيه الأفكار والمعتقدات والاتجاهات والقيم والعادات والتقاليد وأنماط السلوك،

وإذا ما أردنا معالجة مفهوم الثقافة والبحث في دلالاته المعرفية والمفاهيمية سنجد أنفسنا ربما أمام معضلة تاريخية من جهة ولُغوية من جهة أخرى،ولعل أول ما يتبادر إلينا هو ذاك السؤال القائم عن منبع هذا المفهوم وجذره: من أين جاء؟ وإلامَ يرمي؟ وهو السؤال الذي يدفعنا في البدء – بعفوية – إلى استشارة القواميس اللغوية، ومعاجم الفكر التي ربما لن نجد فيها الكثير عن معنى الثقافة وتعريفاتها،

في اللغة يقال: " ثَقِفَ ثَقْفاً وثَقِفاً: صار حاذقاً ماهراً،... ثقافة: مص / ج ثقافات: تمكن من العلوم والفنون والآداب، غنى فكري ومعرفة واسعة،،،.... مجموع المعارف المكتسبة التي تسمح بتنمية الذوق وحاسة النقد وقدرة الحكم على الناس وفي الأمور والأشياء " [1] ،

أما في الاصطلاح فمعناها يشير إلى أنها تمثل خاصة من خصوصيات الفرد والمجتمع على السواء، بمعنى أنها تشكل مرحلة حاسمة في صيرورة التقدم الفني والأدبي والعلمي لمجتمع ما، بل إن شئت قل هي مرحلة يرتقي فيها العقل والفطرة السليمة إلى مرحلة الإلمام بكل الجوانب المعرفية أدبية كانت أم علمية، لذلك " يأخذ المفهوم العام للثقافة طابع الشمولية على نحو واسع، ويشتمل في إطار عموميته هذه على الغايات المطروحة والمعلنة، فالثقافة في واقع الأمر كلٌّ مكتسب مشترك بين أفراد الجماعة، وتشتمل أيضاً على أشكال التعبيرات المختلفة والفعاليات المتنوعة التي تنبثق عن النظام المعرفي المكتسب " [2]،

أو هي " كل ما فيه استنارة للذهن وتهذيب للذوق وتنمية لملكة النقد والحكم لدى الفرد أو في المجتمع وتشتمل على المعارف والمعتقدات، والفن والأخلاق وجميع القدرات التي يسهم بها الفرد في مجتمعه، ولها طرق ونماذج عملية وفكرية وروحية، ولكل جيل ثقافته التي استمدها من الماضي، وأضاف إليها ما أضاف في الحاضر، وهي عنوان المجتمعات البشرية " [3]،

ولكن نظراً لتعدد تعريفات الثقافة وتنوعها بشكل يتعذر معه حصرها فإن أغلب الكُتّاب والمفكرين ركزوا اهتمامهم على اتجاهين مهمين في تلك التعريفات وإن كان بين هذين الاتجاهين تنافس وتسابق نحو إبراز القيمة الفعلية لهذه التعريفات والاتجاهات التي تنجم عنها، فينظر أحد هذين الاتجاهين إلى الثقافة على أنها " تتكون من القيم والمعتقدات والمعايير والرموز والاتجاهات والأيديولوجيات وغيرها من المنتجات العقلية، أما الاتجاه الآخر فيربط الثقافة بنمط الحياة الكلي لمجتمع ما والعلاقات التي تربط بين أفراده، وتوجهات هؤلاء الأفراد في حياتهم"[4].

ثمة جانب مهم من الضرورة بمكان الإشارة إليه، هو أن الكثيرين يخلطون بين الثقافة والحضارة، ورغم التشابه بينهما، والتصاق كل منهما بالآخر إلا أنه ثمة بعض الفوارق التي لا تكاد تتضح بصورة ظاهرة إلا بقدر التركيز عليها،غير أن هذه الفوارق بطبيعة الحال لا تلغي علاقة التداخل التي تربطهما، فالحضارة كما الثقافة تمثلان حالة من حالات تطور الفكر والتاريخ البشري مادام الاثنان يعبران عن روح المجتمع من حيث تقاليده وعاداته وقيمه وموروثاته الحضارية التي تقف بالضد من الأفكار والموروثات والقيم البدائية، ورغم هذا التداخل والتلاقح بينهما وجب أن نبين أوجه الاختلاف بينهما:

أولاً– على الصعيد المادي: فالحضارة تتمظهر عبر الملامح المادية التي تنجزها في فترة ازدهارها وانتعاشها ممثلة في بناء المعابد والتماثيل والأبنية المنحوتة وغيرها من الأعمال التي تبدو إلى حد كبير أعمالاً فنية رائعة، ورغم أن هذه المنجزات هي عامل مهم في استقصاء ثقافة الشعوب ودراستها إلا أنها تظل مظهراً خاصاً بالحضارة،

ثانياً– على الصعيد النظري: بما أن الحضارة كما أسلفنا تمتاز بجانبها المادي في كافة جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية وحتى الاقتصادية فإن الثقافة تتزين بمظهرها النظري والفكري ومع ذلك تسهم في إرساء منظومة التطور الإنساني بموازاة الفعل المادي للحضارة،

ثالثاً– على مستوى التأثير وسرعة القبول: تغدو الحضارة أسرع تأثيراً وانتشاراً من الثقافة، بسبب الوسائل المادية للحضارة، فعادة ما يميل الإنسان إلى اقتناء الأشياء المادية للحضارة والتعامل معها على أنها أدوات وأشياء حققها التطور العلمي كوسائل الاتصال مثلاً أو التقنيات الحديثة، لكننا نجده في المقابل لا يملك استعداداً لتغيير أفكاره بذات السرعة التي يتقبل فيها مظاهر الحضارة المادية ووسائلها المتقدمة، وقد تكون الحضارة ذاتها وسيلة لنقل الثقافة إلى مجتمعات أخرى سواء أكانت هذه الثقافات حسنة أو سيئة في نظرنا، كما هو الحال في ظروف

الحروب واحتلال البلدان فينقل المحتل ثقافة بلده بشكل جلي أو مضمر، عن نية أو بدون قصد، وقد ينجح في ذلك أو يفشل وكله يتوقف على مدى فاعلية الوعي في مواجهة هذه الثقافة الوافدة،

رابعاً- على مستوى العلاقة العكسية بينهما: وهذه العلاقة العكسية قد تبدو على نحو أكثر وضوحاً بين الثقافة والحضارة، فقد يكون من السهل نقل الحضارة وتقبلها بينما يحتاج نقل الثقافة لعديد السنوات، بل قد يرفض المجتمع ومؤسساته الثقافة الواردة بجميع أشكالها سواء أكانت علمية أو أدبية، فالمجتمع يقبل الحضارة القادمة بأساليبها العلمية والتقنيات المصاحبة لها من الغرب مثلاً، لكنه يرفض أفكار الغرب وتقاليده وعاداته وحتى قيمه، اعتقاداً منه بالحفاظ على المبادئ والثوابت المتأصلة في ذاته،

ويمكن القول إن الثقافة هي ظاهرة اجتماعية التصقت منذ ظهورها بالعلوم الاجتماعية أكثر مما التصقت بغيرها من العلوم البيولوجية، فمفهوم الثقافة " هو من صلب تفكير العلوم الاجتماعية، إنه ضروري لها، بصورة ما، للتفكير في وحدة الإنسانية، ضمن التنوع في غير معناها البيولوجي، يبدو أنه يوفر الإجابة الأكثر ترضية لمسألة الاختلاف بين الشعوب " [5].

ثانياً- أصل المفهوم:

يتسأل كثيرون عن أصل الثقافة خاصة في فكرنا العربي، من أين أتت؟ وماذا كانت تعني في أول عهدها؟ وهو التساؤل الذي فتق قريحة الكُتّاب والباحثين، وأزهرت بمقتضاه بتلات الفكر ليثمر فيما بعد ما صيغ حول هذا المفهوم، وربما لا يخفى على أحد أن الثقافة تهتم بشؤون الفكر عموماً لكنها مع ذلك لا توقفنا عند معنى محدد، ولعل ذلك يعود إلى أن كلمة (الثقافة) هي كلمة حديثة العهد في خطابنا العربي، فأغلب معاجمنا القديمة إن لم تكن كلها لم تعطنا كلمة الثقافة إلا في إطار دلالتين أساسيتين هما الحذاقة والذكاء وسرعة الفهم وجودة البديهة من جهة

وتسوية الشيء وتقويمه كأن يقال (ثقف الرمح إذا سواه وقوّمه) من جهة أخرى، أي أن " كلمة الثقافة مشتقة من فعل " ثقف " ومعناه ظرف، وصار حاذقاً خفيفاً، ومن تثقيف الرمح، بمعنى تسويتها وإزالة عقدها حتى تصبح مستوية وخفيفة، فالرمح المثقف هو الرمح السوي الخالي من العقد، وجاءت كلمة ثقافة (Culture) الانكليزية وهي كلمة تعني الحضارة والثقافة في الفرنسية (Culture) ومعناها الحرفي " الزرع " فهي التعليم الذي يغرس المعرفة في النفوس، أما الثقافة – بالمعنى الذي نستخدمه – فإن الكلمة المناسبة هي " المعرفة " والمثقف بالتالي هو الذي يحيط بكل معارف عصره سواء تبحر فيها وتعمق أم توقف عند حد ما " [6] ولم يُعثر على ما يوحي بامتداد هذا المعنى إلى الفكر، بالتالي لم تكن كلمة الثقافة في أصلها العربي مفهوماً يتمتع بقوته، ولا مصطلحاً يتصل بالقضايا الفكرية، ولا دلالة فكرية معينة لها، وهذا الرأي بطبيعته يؤكد أن مفهوم الثقافة في إطاره العربي، كلمة تم توليدها لتتماشى مع المعنى المجازي لكلمة ثقافة (Culture)، وهو توليد يتفق إلى حد ما في ذلك التجلي الذي يظهر في المعنى الأصلي (الحذق والتسوية) والمعنى الجديد الذي صيغت للدلالة عليه.

ينحدر أصل كلمة (ثقافة) من اللاتينية (Cultura) التي تعني العناية الموكولة للحقل وما في حكمه وذلك للإشارة إلى فلاحة الأرض وحراثتها، وقسمة الأرض المحروثة، وقد ظهرت في أواخر القرن الثالث عشر، وفي بداية القرن السادس عشر تشير الدراسات إلى أن هذه الكلمة " كفّت عن الدلالة على حالة (حالة الشيء المحروث) لتدل على فعل هو فلاحة الأرض، ولم يتكون المعنى المجازي إلا في منتصف القرن السادس عشر، إذ تشير كلمة (ثقافة) حينذاك إلى تطوير الكفاءة، أي الاشتغال بإنمائها. ولكن ذلك المعنى المجازي ظل غير دارج بكثرة حتى منتهى القرن السابع عشر، ولم يحز على اعتراف أكاديمي، إذ لم يدرج ضمن مواد أغلب قواميس تلك الفترة " [7] .

حتى القرن الثامن عشر لم يكن لديناميكية الأفكار سوى دور ضئيل في تطور المضمون الدلالي للكلمة، وليس سوى استخدام الكلمة استخداماً مجازياً، معتمدة في ذلك على إتباع الحركة اللسانية الطبيعية التي تعتمد على الكناية (متنقلة من الثقافة بوصفها حالة إلى الثقافة باعتبارها فعلاً) من زاوية، وعلى الاستعارة (متنقلة من فلاحة الأرض إلى ثقافة الفكر) من زاوية أخرى، لذلك أخذت كلمة (الثقافة) في القرن الثامن عشر في فرض ذاتها بمعناها المجازي، وبهذا المعنى تم إدراجها في قاموس الأكاديمية الفرنسية " وهي في أغلب الأحيان متبوعة بمضاف يدل على موضوع الفعل، هكذا كان يقال ((ثقافة الفنون)) ((وثقافة الآداب)) ((وثقافة العلوم)) كما لو كان ضرورياً أن يحدد الشيء المعتنى به تثقيفاً " [8].

ثم تدريجياً بدأت الثقافة تتخلص من متمماتها المضافة وانتهت إلى استخدامها منفردة دالة على بناء الفكر وتكوينه في حركة تقدمية انتقلت فيها من فلاحة الأرض والإفادة من منتوجها إلى تدريب الفكر وجني ثمراته، ومن محصول الأرض إلى محصول الفكر، في حركة معاكسة لما كان سائداً، لقد تم المرور من ثقافة باعتبارها فعلاً (فعل التعلم) إلى ثقافة بوصفها حالاً أي حال الفكر وقد أخصبه التعليم،وحال الفرد ذي الثقافة، تكرس هذا الاستخدام وظلت كلمة (ثقافة) في القرن الثامن عشر تستخدم في صيغة المفرد وهو الأمر الذي يعكس كونية الفلاسفة وإنسانيتهم،إذ الثقافة هي أخص ما يختص به الإنسان (نوعاً) تجاوزاً لكل التمايزات التي كانت تميز بين الشعوب والطبقات، ومن هنا انخرطت الثقافة في أيديولوجيا ما يعرف بالأنوار، وذلك عائد إلى اقتران اللفظ بالتربية والعقل وأفكار التطور ومسارات التقدم التي شكلت النواة الجوهرية لعصر الأنوار. ومع ظهور حركة الأنوار في انجلترا كانت قد نالت حظها في اللسان الفرنسي ومعاجمه، وكان لها الصدى الكبير على الفور في عديد العواصم الأوربية ابتداءً من

أمستردام وبرلين مروراً بميلانو ولشبونة ومدريد وصولاً إلى سان بطرسبيرغ، فكانت فكرة الثقافة جزءاً من اللحظة المعاشة التي منحت نصيباً من التفاؤل المتأسس على الثقة في تحسن مصير الكائن الإنساني انطلاقاً من أن التقدم مرتهن بالتعليم،أي بالثقافة المتسعة أبداً.

اتسع مفهوم الثقافة بعد اقترابه من مفهوم الحضارة كما مرّ معنا ليعني فيما بعد الصيرورة التي تحرر الإنسان من قيد الجهل واللا عقلانية، وأياً كان الأمر فإن استخدام كلمتي أو مفهومي ((ثقافة)) أو ((حضارة)) قد أسهم في وضع تصور جديد للتاريخ لا قداسة فيه، وبه تحررت فلسفة التاريخ من لاهوت التاريخ، وحلت أفكار التقدم شكلاً بديلاً عن الرجاء الديني،ومنذ ذلك الوقت وضع الإنسان في مركز التفكير، كما ظهرت فكرة إمكان قيام (علم الإنسان) لأول مرة على يد " ديدرو* Diderot سنة 1775 (ضمن مقالة " الموسوعة " في الموسوعة)، في 1787 ابتدع ألكسندر دو شافان Alexandre de Chavannes كلمة (إثنولوجيا) التي عرّفها على أنها الاختصاص الذي يدرس تاريخ تقدم الشعوب نحو الحضارة"[9].

انتقل هذا المفهوم إلى اللسان الألماني وظهرت كلمة ثقافة (Kultur) في القرن الثامن عشر وبدت أنها نقل حرفي للفظ الفرنسي،لكنها تطورت فيما بعد لتنحو منحى.

أكثر حصراً مما كانت عليه عند الفرنسيين، فأخذ أبعاداً أخرى ارتبطت بمفهوم الأمة القومية أكثر مما ارتبط بالمفهوم الكوني خاصة بعد تبني الطبقة البرجوازية المثقفة لهذا المفهوم واتخاذه أسلوباً في معارضة أصحاب السلطة بالفعل، ونظراً للفوارق الطبقية التي كانت سائدة في ألمانيا آنذاك، والهوة العميقة بين طبقة النبلاء والارستقراطيين من جهة والبرجوازيين من جهة أخرى، انعقد عند عدد كبير من المثقفين الإصرار على مواجهة ما كانت تعرف بقيم

الكياسة الارستقراطية، بالقيم المسماة ((روحية)) المؤسسة على العلم والفلسفة والفن والدين كذلك، اعتقاداً منهم أن القيم الأخيرة هي القيم العميقة والأصيلة، أما قيم الصنف الأول فهي قيم سطحية لم يكن الصدق ركناً من أركانها.

ومن ثم استحالت في القرن التاسع عشر كلمة (ثقافة) التي كانت خاصية مميزة للطبقة البرجوازية الألمانية في القرن الثامن عشر إلى علامة مميزة للأمة الألمانية برمتها وغدت سمات العمق والصدق والروحانية،أي جميع ما كانت تتحلى به الطبقة الفكرية من ثقافة، منذ ذلك الوقت ميزات ألمانية خالصة. وهكذا تطورت فكرة الثقافة في المنظور الألماني على وقع تأثير القومية، وارتبطت أكثر فأكثر بمفهوم الأمة " فالثقافة تتصل بروح الشعب وعبقريته، والأمة الثقافية تسبق الأمة السياسية وتدعو إليها. إن الثقافة تبدو على أنها جملة من المنجزات الفنية والفكرية والأخلاقية التي تكوِّن تراث أمةٍ يُعتبر مكتسباً بصورة نهائية، وتؤسس لوحدتها " [10].

لقد كان تطور مفهوم الثقافة في فرنسا في القرن التاسع عشر شديد الاختلاف عن النموذج الألماني إذ اغتنى ببعد جماعي وبات دالاً على جملة من السمات المتعلقة بكيان جماعي معين بعيداً عن حصره في التطور العقلي الفردي، ورغم أنه صيغ في معنى واسع فضفاض في كثير من الأحيان إلا أنه ظل مطبوعاً بفكرة وحدة الجنس البشري، وهي بهذا المعنى فإنها تشير إلى ثقافة الإنسانية أكثر من كونها ثقافة مخصوصة " لقد أكد أرنست رينان Ernest Renan في محاضرة (ما الأمة؟) التي ألقاها في السوربون سنة 1882 واكتسبت شهرةً قناعته بأن قبل الثقافة الفرنسية والثقافة الألمانية والثقافة الإيطالية هناك الثقافة الإنسانية " [11].

وأياً كان أصل الكلمة أو مفهومها فإن ما حدث لاحقاً من انشطار لخصوصية هذا المفهوم هو ما دفع الكثير من الباحثين إلى دراسة واقعة الفصل والانشطار التي لحقت بمفهوم

الثقافة، فقد أصبحت الثقافة على جزأين، جزء يتعلق بالمجال الأدبي، وآخر يلحق بالحقل العلمي، ومن ثمَّ غدت الثقافة مقسمة إلى ثقافة أدبية وأخرى علمية، أي أصبحت الثقافة ثقافتين كما أشار إلى ذلك العالم والروائي الانجليزي (تشارلس بيرسي سنو) الذي يكتب اختصاراً (سي، بي، سنو).

ثالثاً- مفهوم الثقافتين عند سي، بي، سنو:

يثير العالم الروائي الإنجليزي (سنو) واحدة من أهم الإشكالات التي نعثر على ملامحها في المجالين المعرفي والفكري، وهي إشكالية التجزيء التي تمر بها الثقافة فمع تطور العقل التقني والتكنولوجي امتلك هذا الأخير خصوصية التفرد عن بقية المجالات المعرفية الأخرى، مما خلق ذلك فجوة شاسعة بين الآداب والعلوم، أو لنقل بين الثقافة بمحتواها الأدبي والثقافة بمحتواها العلمي، الأمر الذي ترتب عليه ميلاد صنفين من المثقفين، صنف ينتمي إليه المثقف الأدبي (المنتمي إلى التخصصات الأدبية) وآخر يضم تحت جناحيه المثقف العلمي التطبيقي (الذي ينتمي إلى التخصصات العلمية التطبيقية) ونتيجة لمصاحبته الدائمة لشريحتين أساسيتين (العلماء والأدباء) لاحظ سنو حجم التباعد بينهما، ويقول في هذا الصدد " ومن الطبيعي أنني كنت أملك أصدقاء حميميين بين العلماء والكُتّاب على حد سواء، وكان عيشي بين هاتين المجموعتين، وأكثر من ذلك، على ما أظن، انتقالي الدائم من مجموعة إلى أخرى، هما اللذان شغلاني بالمعضلة التي اسميتها معضلة (الثقافتين) " [12]، فقد كان يشعر سنو دائماً أنه يتنقل بين مجموعتين متماثلتين في الذكاء ومتطابقتين في الأصل، كما أنهما لا يختلفان اختلافاً كبيراً في المنبت الاجتماعي، ويملكان ذات المداخل المعرفية غير أنهما قد توقفتا تماماً بشكل تقريبي عن التحاور، ولم يعد يجمع بينهما في المحيط الفكري والخُلقي والسيكولوجي إلا النزر اليسير.

كان سنو يعتقد أن الحياة الفكرية في المجتمع الغربي برمته آيلة إلى الانقسام الشديد بين قطبين متضادين، نجد في القطب الأول المثقفين الأدبيين الذين وسموا أنفسهم (بالمثقفين) كما لو لم يكن غيرهم كذلك، بينما يضم القطب الثاني المثقفين العلميين، ويعتبر الفيزيائيون أكثر تمثيلاً لهم وتعبيراً عنهم، ويرى سنو أنه " بين القطبين هوة من الجهل المتبادل، ومن العداء والكره أحياناً لاسيما بين الشبان، إلا أن أكثر ما بينهم غياب الفهم، ولكل من القطبين تصور عن الآخر مشوه وغريب، ومواقفهما مختلفة كل الاختلاف، فلا يستطيعان العثور على أساس مشترك عريض حتى على الصعيد العاطفي " [13].

وعلى ذلك وفقاً لسنو يذهب كل طرف لقدح الآخر ورمي التهم عليه، فلئن يرى الأدبيون أن العلميين متفائلون تفاؤلاً ضحلاً ويجهلون وضع الإنسان، فإن العلميين يعتقدون أن المثقفين الأدبيين يفتقدون البصيرة وقراءة العواقب تماماً، إنهم ببساطة معادون للثقافة ؛ لأنهم لا يكترثون بأخوتهم البشر، مع حرصهم الشديد على تقييد الفن والفكر وربطهما معاً باللحظة الراهنة، وكلا الفريقين يتفنن في امتلاك هذه الموهبة المتواضعة في القدح والطعن والكلام المغلّف الذي هو عبارة عن ردود قاسية، هذه الطعون وفقاً لسنو هي طعون تخلو من أي أساس، وهي بطبيعتها طعون مدمرة تماماً يقوم الكثير منها على أخطاء في التفسير خطرة.

بشكل ما من الأشكال يلقي الكاتب باللائمة على أصحاب الاتجاه العلمي عدم اكتراثهم بالآداب والفنون – فيما عدا الموسيقى – بينما يلوم على الأدبيين لعدم استيعابهم الكافي لتطور العلم الذي أدى إلى استيعاب قدر ضئيل جدًا من علوم القرن العشرين داخل فنونه.

إن هذا العبث الذي يؤدي إلى انحسار التواصل أو القطيعة بين الفريقين أو الثقافتين في نظر سنو تذهب ضحيته الإنسانية برمتها، ويلقي باللائمة في هذا الانحسار أو القطيعة على تلك

المناهج الدراسية والجامعية التي اهتمت في نهايات القرن الثامن عشر بتحجيم كلمة (علم) وحصرها ضمن نطاق ضيق لا يتعدى كونه دراسة للمعارف (التطبيقية التكنولوجية) الصاعدة آنذاك، الأمر الذي ترتب عليه إقامة حاجز بين العلماء والنخب المثقفة من زاوية، وبينهم وبين الجماهير والرأي العام من زاوية أخرى، وفي نظرنا ليس الأمر مقتصر على اللغة والتراث الانجليزيين في مسألة تحجيم كلمة (العلم) فقد نعثر في نطاق التفكير العربي على هذا، فالكثير يرى حسب توجهه أن كلمة علم تختص بمجال معين، منهم التقنيون مثلاً، فالعلم في منظورهم هو ما يتعلق بالعلم التقني، والأمر ذاته ينسحب على الأئمة والفقهاء فهؤلاء يعتقدون أن كلمة علم محصورة فقط في ما يتعلق بالعلم الشرعي أو الديني، وهلم جرا، لذلك فالمسألة تستوجب البحث فيما يرى سنو لتوسيع مفهوم كلمة العلم وعدم حصرها ضمن نطاق ضيق يسيء إلى الكلمة في حد ذاتها وما تحتوي عليه من مدلولات معرفية شائكة معقدة.

يقرر سنو استناداً إلى ذلك أن ثمة خلل تلتبس معه المنظومة الفكرية بأسرها، وهذا الخلل ناجم عن كمية الجهل المتفشية بين العلماء والمفكرين من أصحاب الثقافتين الأدبية والعلمية كل بما يملك من أسس معرفية.

ويرى سنو أن كثيراً من العلماء مثلاً لم يطالعوا أي شيء يتعلق بكتابات " ديكنز " بوصفها مَعْلَماً من معالم الأدب الانجليزي، وهو يعلن في الآن ذاته عن أسفه وخيبته حيال الذين يقدمون أنفسهم على أنهم الصفوة المثقفة وفق المعيار التقليدي للثقافة، أي تلك الصفوة التي تلغي عن غيرهم هذه الخاصية لتسبغ عليهم ضرباً من الأمية الثقافية، وهؤلاء الصفوة في نظر سنو يعجزون عن التفاعل إيجاباً مع كثير من الاستفسارات التي يطرحها قانون الديناميكا الحرارية،

أو قانون الاعتلاج مثلاً، وهو يعتقد أن هذه الاستفسارات بمثابة أسئلة علمية مكافئة تماماً للسؤال عن أي من أعمال شكسبير في عالم الأدب.

وتأييداً لذلك يقول سنو " والآن، اعتقد لو أنني كنت قد سألت سؤالاً أبسط، كأن يكون: ماذا تعني بالكتلة أو التسارع، وهو المعادل العلمي للسؤال: هل تستطيع أن تقرأ؟ لما شعر أكثر من واحد من عشرة من ذوي التعليم العالي بأنني كنت أتحدث باللغة نفسها، وهكذا يتصاعد الصرح العظيم للفيزياء الحديثة، والأكثرية من أذكى الناس في العالم الغربي تفهم من هذا الصرح قدر ما كان سيفهمه أسلافها من العصر الحجري الحديث " [14]، ويعتقد سنو من ذلك أنه لو طرح أسئلة عن معنى الكتلة أو للسؤال هل تستطيع القراءة فإن ما لا يزيد عن عُشر النخبة المثقفة كانت ستفهم اللغة التي أحادثها بها، ومن ثم وبالرغم من التطور الذي يقع على بنية الفيزياء الحديثة فإن الأغلبية من أذكى الناس في العالم الغربي لا يستطيعون الإلمام منها بأكثر مما فعل أجدادهم في أواخر العصر الحجري.

لا يريد سنو أن يضيع الوقت في كثير من الشرح والتفسير، لكنه يذهب إلى التأكيد أن هذا الانقسام الثقافي ليس موجوداً في انجلترا وحسب وإنما هو ظاهرة تكاد تغزو العالم الغربي، وفي رأيي أنها تجتاح العالم العربي أيضاً، وإن كان يبدو أنه على أشده في انجلترا لسببين اثنين: يتعلق أولهما بالتخصص التربوي المغروس فينا على نحو أعمق والتعصب له ، بينما يتمحور الثاني في جنوحنا للسماح لأشكالنا الاجتماعية بالتبلور، وهذا الجنوح يقوى ولا يضعف كلما حاولنا التخلص من مظاهر ظلمنا الاجتماعي وهو ما ينطبق على التربية كذلك، وهذا ما يعني أنه إذا ما ترسخ الانقسام الثقافي فإن كل القوى الاجتماعية تعمل على جعله أكثر جموداً ، لذلك

كان يرى سنو أنه ليس ثمة سوى مخرج واحد من هذا الوضع وهو " إعادة التفكير في التربيـــة عندنا " [15].

ولعلنا نلحظ ذلك بجلاء حتى على مستويات التعليم المختلفة فـــي مدارســـنا وجامعاتنـــا، فغالباً ما ينظر إلى طلاب التخصصات العلمية بأنهم أشد حرصاً على الاهتمام بنبات العلم الـــذي سيغدو فيما بعد أكثر إزهاراً وإثماراً، أما أصحاب التخصصات الأدبية فهم في نظر غيرهم أقـــل أثراً وتأثيراً، لذلك فهم يتعرضون لكثير من التهميش والإهمال قد يصل حد الازدراء، بـــل إننـــا نجد كثيراً من تخصصات العلوم الإنسانية يعمل الكثير على إذابتها وصهرها إلى الحد الذي تبدو معه كأنها علوماً لا حاجة لنا بها أو أنها علوم لا تقدم ولا تؤخر في المجال المعرفـــي المتعـــدد الاتجاهات، وإذا كان(سنو) قد امتعض من سوء الفهم الحاصل بين الثقافتين العلمية والأدبية، فإن الظاهرة في عالمنا المعاصر أشد تعقيداً، وهي ليست مجرد أمر يتعلق بسوء فهم، بل هي معرفة تنطوي على أنساق شديدة التعقيد، وكذلك تثير إشكالات حقيقة قادمة، وما لم نضع حســـاباً لتلـــك المعرفة والإشكالات التي قد تنجم عنها بمعرفة عابرة للتخوم التي تفرضها الثقافة العلمية الضيقة الحدود، فإنّ خسائر جمّة ستلحق بنا أفراداً ومجتمعات سواء بسواء " فمـــن الخطـــر أن توجـــد ثقافتان لا تستطيعان التحاور، ولا تتحاوران " [16].

لقد كان للثورة الصناعية كما يرى (سنو) إمكاناتها الكبيرة لتغيير حياة البشـــرية نحـــو الأفضل، فقد مكّن تطور العلوم الطبية إلى جانب التطبيقية من زيادة عدد السكان، كمـــا وفـــرت الطعام والعلاج، وعززت وعي المواطنين بجدوى التعليم وأهميته بالقدر الذي لا يمكن للمجتمـــع الصناعي أن يحيا بدونه،وفي هذا الصدد يقول سنو: " ففي الأقطار المتقدمـــة، أدركنـــا بطريقـــة عامة وبسيرة ما جلبته الثورة الصناعية القديمة معها: زيادة كبيرة فـــي الســـكان ؛ لأن العلـــوم

التطبيقية سارت ويدها في يد العلوم الطبية والعناية الطبية،وهناك ما يكفي تناوله للأكل لسبب مماثل،وكل شخص قادر على أن يقرأ ويكتب، لأن المجتمع الصناعي لا يعمل بغير ذلك " [17].

يبين (سنو) طبيعة التحولات النوعية التي نقشت آثارها على وعي الإنسانية وأنماطها الثقافية المتعددة، وقد كانت البداية بالثورة الصناعية التي صاغت تركيبة جديدة للمجتمعات – على الأقل في البلدان المتقدمة صناعيًا – وهيأت إمكانات هائلة لحياة إنسانية من نوع جديد.

كان (سنو) يعتقد أن الثقافة التقليدية لم تتمكن من رصد التحولات الاجتماعية الكبيرة للثورة الصناعية بشكل كافٍ ومرضٍ ، أو بمعنى أدق لم يتمكن المثقفون التقليديون من استيعاب الصورة الجديدة للمجتمع الجديد على نحو واضح وشامل ؛ وحتى الذين استوعبوه منهم لم يكترثوا له كثيراً، بل قد كالوا له الشكاوى والانتقادات بالرغم من أنهم لم يزدهروا باعتبارهم فئة رئيسية ضمن تركيبة المجتمع بهذا الشكل من قبل، مثلما ازدهروا نتيجة لهذه الثورة الصناعية .

لقد انطلقت هذه الثورة باستخدام الصناعات الكيمائية والهندسية على نطاق واسع، في حين يرى (سنو) أنها بدأت فعلياً مع إدخال الجزيئات النووية في مرحلة التصنيع وهو ما أدى إلى ظهور مجتمع الإلكترونيات والطاقة النووية، ذلك المجتمع الذي ازدهرت فيه الثقافة العلمية ومثقفيها من ناحية، والذي كانت تعقد عليه آمالًا كبيرة في تغيير العالم من ناحية أخرى .

ويعتقد (سنو) أن الأمل الأكثر عمقاً بالنسبة له هو أن يسهم هذا المجتمع في القضاء على أنماط الفقر المتعددة، " فالتصنيع هو أمل الفقراء الوحيد " [18]، فهو يرى أنه من السهولة بمكان أن تستوعب الشعوب فكرة التكنولوجيا وتتعلمها باعتبارها نموذجاً حياً للتطور، وفي هذا الصدد ينتقد (سنو) فكرة الغرب في احتكار التقنية والسيطرة عليها لفترات زمنية طويلة، كما ينتقد فكرة التشكيك الغربي في قدرة الشعوب الأخرى على استيعاب التقنية وإدخالها ضمن منظومتها

العلمية، ويقول (سنو) في هذا السياق " إن الأمر ببساطة هو أن التكنولوجيا يسيرة نسبياً، أو بكلمة أدق، إن التكنولوجيا هي ذلك الفرع من الخبرة الإنسانية الذي يستطيع الناس تعلمه بنتائج يمكن توقعها، وقد أخطأ الغرب فترة طويلة في الحكم في هذه المسألة، وكان هذا الخطأ فاحشاً جداً " [19]، ويستطرد (سنو) فكرته حول مشاعية فكرة التكنولوجيا وإمكان الحصول عليها بطرق التعليم الممكنة قائلاً: " إن ما يثير الانتباه أن ما من شيء من كل هذا يبدو مهماً جداً، فلا تحتاج مهمة تصنيع قطر ما بشكل كامل، كالصين اليوم مثلاً، سوى إلى الإرادة لتدريب عددٍ كافٍ من العلميين والمهندسين والفنيين، إنها الإرادة وعدد قليل جداً من السنوات، وليس ثمة دليل على أن أي قطر أو عنصر أفضل من غيره في قابلية التعلم، وهناك الكثير من الأدلة على أن الكل متشابهون إلى حد كبير " [20].

لا سبيل إلى التغلب على هذه الفوارق إلا بانتشار التعليم على نطاق واسع وتوحيد الثقافتين العلمية والأدبية، بدلاً عن هذا التشظي وانفراد الثقافة العلمية بالسيطرة على مجالات الفكر، ويحذر (سنو) من استمرار عملية الانفصال بين الثقافتين التي بدورها ستسهم بشكل مباشر في مضاعفة مشكلات الإنسان، وزيادة قلقه حول مستقبله في ظل تزايد حدة العلوم التطبيقية، ويدعو الإنسان إلى أن يفرق بوضوح بين مشكلاته الفردية وأسئلته العميقة التي لا يمكنه الفكاك من أسرها كالموت والقلق الوجودي على مصيره، ومشكلاته العامة التي قد يولدها له المجتمع وهي المشكلات التي يرتبط فيها مع الآخرين، " لقد فقدنا في مجتمعنا، المجتمع الغربي المتقدم حتى التظاهر بثقافة مشتركة، ولم يبق بمقدور الأشخاص الذين تلقوا أوسع قسط من التعليم نعرفه أن يتحاوروا على صعيد اهتمامهم الفكري الرئيسي، وهذا أمر ذو خطورة على حياتنا الإبداعية والفكرية، بل حياتنا الطبيعية قبل كل شيء، وهو يؤدي بنا إلى أن نفسر الماضي

بصورة خطأ، وأن نسيء الحكم في الحاضر، وأن ننكر آمالنا في المستقبل، وهو يجعل من الصعب أو المستحيل علينا أن نتخذ إجراءات جيدة " [21].

إن مجابهة مشكلات البشرية – وهو الأمر الأكثر إلحاحاً اليوم – من جوع وفقر وانتشار للأمراض لا تتم إلا من خلال تضافر الجهود بين المثقفين، والعمل على نشر روح التعاطف والتفاهم باعتبارهما وحدة مشتركة بين الجميع، وهي الوحدة التي من شأنها أن توفر حلولاً علمية لحياة إنسانية أرقى وأسمى، إذ " لا عذر لنا في أن نسمح بأن يكون جيلاً آخر جاهلاً جهلاً كبيراً أو خلواً من التعاطف والتفهم كما نحن عليه " [22].

لقد أثارت فكرة (سنو) عن الثقافتين موجة من الاحتجاج من قبل كثير من النُّقاد الذين اعترضوا على عملية فصل الثقافة وحصرها ضمن اختصاصات بعينها، لكنه ظلّ متمسكاً بفكرته مدافعاً عنها، إذ يقول " لا تزال كلمة " الثقافتين " تبدو ملائمة للغرض الذي كنت أفكر فيه" [23].

إن فكرة التحاور بين الثقافتين، وتحديث فكرة استيعاب الموضوعات المتعلقة بهما هي السبيل الأنجع والأكثر إلحاحاً لتجاوز محنة الانقسام والتشظي المعرفيين، خاصة في زمن غدا فيه العلم هو المقرر الوحيد لمصائرنا، صحيح أننا يجب ألا نستهين بانتصارات العلم ولكن حبذا لو كان هذا الانتصار مقترناً بمجابهة الأخطار الكبيرة التي أتى بها العلم،

إن النجاة من أخطار العلوم التطبيقية شيء، وتحقيق المنافع البسيطة والواضحة التي وضعتها العلوم ضمن قدرتنا شيء آخر، هكذا كان يرى (سنو)، بل صعب ويتطلب مزيداً من الخبرات والمؤهلات وهو على المدى البعيد أكثر إثراءً لنا وإغناءاً، ويستوجب تحقيق تلك

المنافع طاقات جديدة ومهارات ومعرفة للذات، وقدرات جديدة على الفهم في السياسات المغلقة والمفتوحة على حد سواء.

وبالرغم من أهمية التعليم في تقريب الهوة، وسد الفجوة بين الثقافتين إلا أن (سنو) يرى أن التعليم لن يأتي بالمعجزات ؛ لأن انقسام ثقافتنا جعلنا أبطأ في فهمنا مما يجب أن نكون عليه، ومع ذلك " وبشيء من حسن الطالع، نستطيع نحن أن نعلِّم نسبة كبيرة من أفضل ما لدينا من ذوي القابليات العقلية، وبذلك لا يكونون جهلة بالتجارب المبدعة في العلوم والفنون على حد سواء، ولا بمعطيات العلوم التطبيقية أو بالآلام التي يعانيها معظم إخوتهم البشر والتي يمكن علاجها، أو بالمسؤوليات التي ما أن تدرك حتى يتعذر إنكارها " [24].

الخاتمة:

صحيح أن (سنو) حاول أن يحدد لنا طبيعة المشكلة المتعلقة بالثقافة من حيث انقسامها إلى فئتين أو حقلين يحاول كل حقل منهما أن يؤسس لثقافة متمايزة عن الأخرى، أي ثقافة العلوم من جهة وثقافة الفنون والآداب من جهة أخرى، لكن ثمة سؤال يطرح ذاته بقوة: هل تمكن بطرحه هذا الذي ضمنه في كتابه " الثقافتان الأدبية والعلمية ونظرة ثانية " من تقديم الحلول لإشكال الانفصال بين الثقافتين؟ وهل تجاوز في طرحه عقدة الحديث عن المشكلة داخل المجتمع الغربي دون أن يتعداها لمجتمعات أخرى تعاني من الإشكالية ذاتها؟ في نظرنا لم يقدم (سنو) سوى نظرة أحادية الجانب مع ميله الواضح وانحيازه لجانب الثقافة العلمية وإن تظاهر بمحاولة التوأمة بين الثقافتين.

لا يبدو لنا أن سنو قد قدّم الحلول الناجحة بقدر ما حاول أن يقدم لنا أسباباً للمشكلة، ومع ذلك تبدو اطروحاته، صرخة إنذار أو ربما خارطة طريق أدت في النهاية إلى اهتمام

أنصار كل ثقافة بمضامين الثقافة الأخرى وركائزها، والسعي نحو الإلمام بأبحاث كلا الطـــرفين، ليغدو أمر نقدها أو تقييمها أمراً سهلاً يستند إلى قاعدة التقريب بينهما، وهو الأمر الذي أدى إلـــى ظهور مفكرين وبُحّاث من كلا الثقافتين يدعون إلى ما يعرف باســـم ((الثقافـــة الثالثـــة)) وهـــي الموضوع الذي ليس بمقدور هذا البحث الخوض فيه راهناً، لذلك يفتح هذا البحث المجال للحديث عن طبيعتها وخواصها ونماذجها في أبحاث لاحقة.

هوامش البحث:

1) انطوان نعمة وآخرون، المنجد في اللغة العربية المعاصـــرة، ط2، دار المشـــرق، بيـــروت: 2001، ص165.
2) مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة:1983، ص58.
3) إليكس ميكشيللي، الهوية، ترجمة: علي وطفة، دار النشر الفرنسية، دمشق: 1993، ص27.
4) مجموعة من الكُتّاب،نظرية الثقافة،ترجمة: علي سيد الصاوي،سلســـلة عـــالم المعرفة،العـــدد 223،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت: 1997، ص10.
5) دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة: د. منيـــر الســـعيداني، المنظمـــة العربية للترجمة، بيروت: 2007، ص9.
6) إبراهيم الصعبي، جدلية الثقافة والمعرفة المعاصرة، مجلة آفاق المعرفة، العـــدد 529، وزارة الثقافة، دمشق: 2007، ص290،
7) المرجع السابق، ص17.
8) المرجع السابق، ص18.

*) ديدرو ديني فيلسوف فرنسي (1713–1784)، ارتبط اسمه بحركة التنوير الأوربية الفكرية للتقدم الاجتماعي والعلمي، وعمل محرراً للموسوعة واسعة الانتشار (Encyclopedia) (1751–1780) وهي نسخة سياسية عن الموسوعة الانجليزية 1728م أفريم تشامبرز (Ephraim Chambers) التي أثرت في التفكير الاجتماعي المعاصر بتركيزها على المذهب المادي ومعاداتها للمبادئ الروحية، وقد عُرف واضعو هذه الموسوعة باسم (الموسوعيين)، ويتضح المذهب المادي في مؤلف ديدرو (حلم دالمبير) الذي نشر بعد وفاته حيث يرى العالم الطبيعي مجرد مادة وحركة، ويرى ديدرو أن أصل الحياة وتطورها ميكانيكي،

أنظر: هتشنسون، معجم الأفكار والأعلام، ترجمة: خليل راشد الجيّوسي،دار الفارابي، بيروت: 2007، ص214–215

9) دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية،المرجع نفسه، ص20.

10) المرجع السابق، ص24-25،

11) المرجع السابق، ص26.

12) جي. بي، سنو،الثقافتان الأدبية والعلمية ونظرة ثالثة، ترجمة: د، صالح جواد الكاظم،منشورات دار الجاحظ للنشر، بغداد: 1982،ص6.

13) المصدر السابق، ص8،

14) المصدر السابق، ص21.

15) المصدر السابق، ص25.

16) المصدر السابق، ص114.

17) المصدر السابق، ص37.

18) المصدر السابق، ص34.

19) المصدر السابق، ص57-58،

20) المصدر السابق، ص58-59،

21) المصدر السابق، ص68.

22) المصدر السابق، ص70.

23) المصدر السابق، ص77.

24) المصدر السابق، ص116.